

جماليات الوصف والتصوير

د. يوسف حسن العارف



في شرفات الحصون (1)

مدخل:

كثيراً ما استوقفتني (عبدالله ساعد) هذا الشاب/ الأديب/ المبدع في مجال السرد القصصي، فأبتهج بما يصدره من مجموعات قصصية والتي بلغت - فيما أعتقد - (أربعة) مجاميع قبل التي تتداخل معها نقدياً!!

وقد استوقفتني في هذه المجموعة الكثير من جملات العنونة أو العتبات، وبناء الأحداث سردياً واختيارها واقعياً، وتخليق الشخصيات وتأطير حواراتها عبر اللغة والأسلوب، وفضاءات القرية والريف ورمزيتها... وتحريك الساكن وتسكين المتحرك عبر الأزمنة والأمكنة التي تنتمي لها عوالم الحكى وفضاءات السرد. وغير ذلك من الجماليات السردية التي لا تخفى على القارئ الحصيف!!

(2) ولعل أبرز الجماليات التي استوقفتني، ودفعت بالقراءة الناقدة تجاهها هي (تقنية الوصف والتصوير) التي أبدع في رسم ملامحها، وتفتيق أيقوناتاها، وامتلاك مهاراتها اللغوية والتشكيلية والفنية.

(الوصف/ أو التصوير) هو أحد الفنون الخاصة بالاتصال اللغوي، حيث يفترض في القاص/ أي قاص/ أن يمتلك القدرة والمهارة لتصوير المشاهد وتقديم الشخصيات والتعريف بالأمكن والتعبير عن المشاعر والانفعالات باللغة الإبداعية التي توصل المعنى، وتقرب المشاهد عبر المحسنات اللفظية، والأساليب البلاغية، والتصورات الخيالية، وبذلك تصل الرسالة والغاية والمقصود من القاص إلى القارئ/ المتلقي بكل عذوبة وسلاسة وقابلية مقروئية!!

(الوصف) - يعتبره كثير من النقاد ودارسي السرد - من أبرز وسائل وجماليات السرد القصصي وأنه يقوم مقام الديكور في العمل المسرحي، والموسيقى الداخلية في النص الشعري الحديث، والوزن والقافية في القصيدة العربية الخليلية!! وهذا يعني أن على السارد/ القاص امتلاك المهارات اللازمة لهذه التقنية من قوة الملاحظة، ودقة التفاصيل، والعمق في التصوير والتمكن اللغوي لاختيار الألفاظ الملائمة والموصلة للمقصد والمراد وذلك عبر التجليات الوصفية من حيث وظائفها وأنواعها سواء أكانت داخلية أو خارجية، موضوعية أو انفعالية، وتوضيحية أو تزيينية، تجميلية أو معلوماتية.

(3) وعبر هذا التأطير النظري، أو التنظير النقدي لتقنية (الوصف) في النص السردي، سنقترب من المجموعة القصصية التي نستضيفها لتفتيق أيقوناتاها والوقوف عند بعض النماذج المختارة وإخضاعها للتليل النقدي والشبر المفاهيمي عبر ثلاثة مجالات يتضح فيها الفضاءات التصويرية والوصفية وهي: الأماكن، والشخصيات، والأزمنة.

أولاً: تقنيات وصف المكان:

يقول القاص عبدالله ساعد عن الحصون: " ... تتربع على قممها المقابلة حصون تباينت ارتفاعاتها ما بين قصر وطول، مزينة شرفاتها والمدخل بنقوش من حجارة المرو البيضاء، تلوح في واجهاتها كعقود من اللجين".

ويقول عن الوادي: "بينما الوادي العريض... يعمج بالحلال ما بين ماعز وضأن وجمال، وكلاب تنبح بشراسة تذود مع أصحابها عن الماشية المندفعة كالسيل نحو بطن الوادي بغية الارتواء - قبل المبيت - من المجرى المائي العريض الذي يشقه من أعلاه وينسكب فيه متعرجاً حتى يغادره للأودية التي تليه" [قصة شرفات الحصون ص ص 7-10].

في هذين المقتبسين، نلاحظ المكان المنغلق/ الحصن، المكان المفتوح/ الوادي، فالحصون تتربع على القمم الجبلية وتتباين ارتفاعاتها طولاً وقصراً، وشرفاتها تترزين ببياض حجارة المرو التي تشبه الفضة/ اللجين!!

أما الوادي فهو يضم الضأن والماعز والجمال والكلاب التي يربعاها الجد، والمجرى المائي الذي يسيل متعرجاً من أعالي الجبال إلى الأودية التالية، وأفواج الماشية مندفعة قبل المغيب كالسيل لترد الماء بغية الارتواء!!

ومن خلال هذه الوصف، يتصور القارئ ذلك المكان ويرسمه في خياله عبر هذه اللغة البيانية الدالة على دقة الملاحظة، وروعة التفاصيل والتقاط الصورة المعبرة لتصل إلى المتلقي/ القارئ في صورة تكاملية ترتسم في الذهن والذاكرة ويربطها بما يعرفه عن تلك الأماكن في عقله الواعي أو عقله الباطن فتترد الخواطر والذكريات.

ثانياً: تقنيات وصف الشخصيات:

ويقول صاحبنا عن ضيف جاء في ليلة مطيرة: "أظهرت ومضة من ضوء البرق الساطع كأنها بشرياً يرتجف كغصن تجرد من أوراقه. ولف بسرعة وقذف بذاته المنهكة دون انتظار لدعوة، .. الماء ينز من جوانبه وقد بدت لحيته الكثة وهي تقطر بالماء وكأنها ينبع الماء من جذورها ويتفرعها. تقوس قرب الموقد وأخذ يعد يديه ويفرد راحتيه باتجاه النار ثم يعيدها باتجاه وجهه وجسده ثم يعيد الكرة ونحن مشدوهين بمنظره المفزع وحضوره المفاجئ" [قصة التيممة ص ص 15-20].

ويقول عن فتاة لعوب وعاشقة "ذات صباح بصر بها صدفة وهي تهم بالصعود إلى سيارة والدها بجسمها الغض الذي يلوح بشغف من تحت العباءة.. عندما أرسلت إليه بنظرة مختلطة من عينيها النجلاوين، نظرة مصحوبة بابتسامة عذبة أشرق بها وجهها البيضاوي وتتم عن رغبة أكيدة في التواصل معه.. وكانت تواظب على سلوكها بمهارة وكيد، فترفع خمارها السميك وترسل له سهام لحظها مع ابتسامة جلية تدوم لثوان معدودة كافية بأن تجعل قلبه الرهيف يستحيل شتاتاً ويحلق خلفها مع الغبار الذي تحدته عجلاؤها المسرعة" [قصة نظرة ص ص 21-24].

ويقول عن أحد أبطال قصصه من الأطفال: "يستيقظ في منتصف الليل على إثر طيف أمه الذي عبر منامه القلق، يقف أمام غرفتها وينساب الضوء عاكساً ظل قامته الصغيرة... يقف أمام خزانة الملابس الخشبية... ينتفي منها واحداً تحفظه ذاكرته جيداً... يتأمل خيوطه الحريرية الخضراء الداكنة... يدس وجهه الصغير حيث فتحة الصدر يستنشق بعرق من بقية روائحها العالقة في أعطاف القماش...." [قصة تلك الرائحة ص ص 35-36].

ومن خلال هذه التصويرات والأوصاف المقتبسة، نلاحظ أن القاص عبدالله ساعد يتعامل مع أنواع كثيرة من الشخصيات فيهم الرجل، والمرأة، والطفل. ولكل من هذه الشخصيات مواقفها وأوصافها، وأدوارها السردية، فيضفي عليهم من الأوصاف والتصاوير ما يقرب عوالمهم الشخصية إلى مدارك المتلقي وبذلك يعطينا صورة ذهنية عن الأشخاص بكل تنوعاتهم وأدوارهم الحياتية.

ثالثاً: تقنيات وصف الزمن:

وهنا نجد (الزمن) بكل صورته الماضية أو الآتية أو المستقبلية، كما نجد (الزمن) بنوعيه الحقيقي، والتمثيل، كما نجد (الزمن) السردية حيث يعمد القاص إلى ما يسمى بالزمن الاستباقي أو الاسترجاعي، والتسريع أو التبطيئ السردية. وكلها (أزمنة) سردية يتعامل معها القاص بوعي مقصود وحرفية فنية عالية.

يقول القاص عبدالله ساعد: "ذات ليلة اصطادني وعلقت في سنارته، فرح بصيده الثمين... عبرنا منتصف الليل وهو يلوك في فمه الكلام، حدثني عن رفاق الأمس البعيدين..." [قصة البحار ص ص 11-44].
ويقول: "في ساعة متأخرة من الظهيرة طرقت باب منزلنا خمسة رجال عليهم وعشاء السفر...".
ويقول: "ذات ضحى رتيب وهي ساهمة تتأمل فيما حولها".
ويقول: "لثلاثين خريفاً لاحقه ما بين طلوع الشمس وغروبها انتظرتة كما تنبأ ولم تأس...".
"تصرمت بها السنون وشاخت وذوى جسدها وبصرها كل" [قصة هجر ص ص 45-47].
ويقول: "كانت الفسحة المدرسية على وشك أن تنتهي..." [قصة بسكويت 49-51].

وفي هذه المقتبسات يبدو تعامل القاص مع الزمن في آفاقه المتعددة وعبر لغة مسكونة بالتحديد الزمني الواضح فنجد الليل، ومنتصف الليل، والأمس البعيد، والساعة المتأخرة، والظهيرة، والضحى، والسنون، ووقت الفسحة المدرسية!! مع ما تحمله كل تلك الأزمنة من وصف وتصوير يشي بقدرة القاص على ردم الفجوات السردية بهذه (الأزمنة) القولية، و(الأزمنة) السردية، وأزمنة الخطاب السردية!!

(4) وبعد هذه السياحة النقدية مع أحد العناصر الجمالية في النص السردية الذي أهدها لنا القاص/ المبدع عبدالله ساعد المالكي. يتضح لنا - وللقارئ الكريم - كم هو الوصف والتصوير جمالية مائزة في النص السردية، بل هو أبرز وسائل السرد القصصي وأن له وظيفتان، إحداها جمالية لغوية، وثانيهما توضيحية تفسيرية ورمزية دالة على معنى معين ومحدد.

كما اتضح لنا - وللقارئ الكريم - أن الوصف والتصوير يأخذ أبعاداً وفضاءات متعددة داخل المتن القصصي، فهناك وصف الزمن أو ما يسمّى بالوصف الكرونولوجي.

ووصف المكان والشواهد وهو الوصف الطبوغرافي.

ووصف الشخصيات المعروف ب البروزوغرافي.

ووصف الكائنات الفانتازية/ المجازية المعروف باليوتوبيا [كما جاء في دراسة نقدية للأدبية عبلة عباد في بحث لها بعنوان تقنية الوصف، نشر في مجلة أقلام الثقافية/ واحة الإبداع بتاريخ 3 أيار 2011م].

وكل هذا وجدناه متحققاً في هذه النماذج التي اخترناها من المجموعة القصصية: شرفات الحصون للأديب القاص المبدع عبدالله ساعد المالكي.

والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.